مَقَامَةٌ

عن الدنيا وبيان حالها وحال الناس معها

للحبيب أحمد بن محمد المحضار

نفع الله بصاحبها المسمين أجمعين

آمين اللهم آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم، وبعد:

فهذه مقامة الفهامة الحبيب الفاضل سلالة الأفضل الحبيب أحمد بن محمد المحضار ابن الشيخ أبي بكر بن سالم نفع الله بهم و بأسرارهم في الدارين آمين في :

حوادث الدنيا ومحبة الناس لها و فيها

وبأنها سحرة الناس برونقها ولا ينجو من رونقها وغيها إلا من وفقه الله ومن اتخذها مزرعة الآخرة يستدل بها الشخص اللبيب إلى ربه السميع القريب واتباع سيدنا محمد النبي الحبيب صلى الله عليه وسلم ما اشتاق إلى وطنه غريب و على آله وصحبه أهل المحبة والقريب جعل الله لي ولكم و ولوالدينا من المحبة نبينا أوفر نصيب آمين اللهم آمين .

قال الذي يقول ولا يراقب ، و يدعي ويجاوب : أحضرت في بعض الأيام ، دواتي والأقلام ، بعد ما سهرت ليلتي ، في طلب معاشي ، كلقمتي وأنا مثل الشاة المربوطة ، من رأني قال : حالته مغبوطة ، ثم إني عزمت على المسير ، واحضر الأجير ، وفارقت جهات حضرموت ، حين عدم فيها القوت وحالت على أهلها الوقوت ، حتى شافوا الموت الأحمر ، واسنت المال وأغبر ، وعدمت السيول والنخل معاد أثمر ، ويبست البقول والبلاد ولا فيها عيون ، وبينها وبين جاراتها باقي الجهات بون ، وحرفتها بالحراف ، ولا عاد سلكوا الأشراف ، في تلك الأطراف ، و ظهر فيها النساء ،

وتسلطوا أهل الغناء ، وعدموا السلاطين وكثـروا الـشياطين ، وشـاعت حيلة أهل الحيل ، ولا عاد سلك إلا من بطل فيها ولا عدل ، وركبـت ذواة الغازل ، على البعـير البـازل ، عابتـه القبائـل ، وكثـروا الأرذل ، وامـتلأت البيوت أرامل من جور الغلا و البلا النازل ، و رأينـا أنـه لا يجـير مـن هـذه النوائـب إلا المـسير ، و كثـر الخبـب وارتكـاب العطـب في طلـب الـسبب فتجهزنا من البلاد ، وودعنا الأهل والولد ، ونهضنا نهضة الأبطـال ، نـدور على الدنيا بالخلال ، في الشمس والضلال ، وقصدنا الجاه والمال ، فأما الجاه على كل حال ، وعبرنا الطريق بالنشاط ، و الزاد في غاية الانـضباط ، نطلـع جبل ، وننزل جبل ، ومن محل إلى محل ، ندعس الوعر والسهل ، حتى أدتنـا الأقدار ، إلى أطراف البحار ، للتعب والأخطار ، ونزلنا الساحل ، بعد تلك المراحل ، ونفضنا أكياس بالبقير ، من عند مجمع البحـرين ، ودخلنـا المكـلا مُسَلمين ، وجلسنا عشية مفكرين ، و سهنا الملاحظة من المحبـين ، فوجـدنا الناس قد تناسوا الحقوق ، و تركوا ما كان للضيف من الحقوق ، ومـالوا إلى العقوق ، فدبرنا لأنفسنا من العلوق ، وقوة الحلوق ، وطالت عندنا الفكر ، في تدبير السفر ، وقلنا : لابد من عاقل ، يدلنا على أحسن المنازل ، و إن كان في البندر مريح ، أو شغل مليح ، الذي به نستريح ، ونكون قريب من البلـد والعيال ، ولو نغربل بالغربال ، فما ظفرنا بأحد في تلك الـبلاد الـذي نحـن عن المراد فعلهم ، و حلمهم في شباك الـصيد وبيـنهم وبـين الـدنيا حيـد لا عرفو أن يحفروه ، ولا استطاعوا أن يظهروه ، وإنما الذي ثبـت في العقـل أن دولتهم سعدهم بالعدل وبعد :

فإنا نفذنا إلى الشحر متدهدهين ، و دخلناهـا متـولهين ، فهـي ذات غياض ونخيل و معايين ، و هي أرض كثـيرة المـاء والطـين ، ولكـن أهلهـا غيروا الأملاك ، بزراعة التنباك ، الدال على سبيل الهلاك ، وأهلها يحضرون الدرس ، ولا يفهمون إلا بالتعس ، ولا هناك لذة عيش إلا إذا كـان الـصيد فيش ، وإن جئت عند خير الأصدقاء ، يلقاك ببعض الملتقاء ، ويعزمك على الصيد والعيد ، ويجلس عندك كجلسة أبو زيد ، إن نطـق مـا أصـاب ، وإن خاطبته ما رد جواب ، غـير أنهـم يراعـون أوقـات الـصلاة ، ويجلـسون في المساجد للقراءة ، ويختمون في كل خميس ، ويحضرون الحـضرات في المحـل الأنيس ، ودولتهم له رعاية ، ولا يسمع فيهم الـسعاية ، وإذا ظفـر بالعـدو حط عليه الصرف .

فقلنا : نحط في هذا المطرح ، ولا عاد عازه للمسرح ، وشـاورنا كبـير البلد ، للأمر الذي فيه رشد .

وقلنا له : هل الدنيا في أرضكم تجد ، مرادنا منها مدد .

قـال : مـا فيهـا إلا ضـاعة المحاقـب ، و الـشتوت وهـي قطعـة مـن حضرموت وفيها عيب ، ما فوقه عيب ، وغذاء الإنسان فيها نـصف رطـل تمر بلا شك في ذلك ولا ريب .

فقلنا : رضينا بشوك ، وأنت عندنا أحسن من غـيرك ، والآن أوضـح لنا البيان ، و اختر لنا السفر إلى أي مكـان ، حيـث اجـتماع النـاس بعجـوز الغابرين ، ومجمع النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الـذهب والفـضة الصافية ، والخيل المسومة الوافية ، والأنعام والحرث ، والثـرواة والـورث ،

لأنا فارقنا الأهل والأولاد والجيران والبلاد وكل ذلك لأجل الاجتماع بها في أي : مكان كان بحسب الأمكان .

فقال صاحب المشورة : أما أنا لا عاقل ولا لبيب ، إنما الهند فيها العجيب ، والعيش الخصيب ، والدوى والطيب ، عند عباد الصليب ، ومن أراد يتنفس ، يأخذ له سبحه ويتطيلس ، ويأخذ ما سمح من الدنيا إلى أن المحيا ، وأما العجوز حقيق أنها هناك طارحة الشباك لاقتناص اصحابها ، متكشفة من نقابها ، فركبنا السفينة الماشية على الماء ، وتوكلنا على رب الأرض والسماء ، حتى وصلنا إلى بمبي ، فوجدنا نظام المعاملات عند من يزني ، والدراهم محمولة ، والأيادي ، فطلبنا الود والجميل .

فقالوا : ما إلى ذلك من سبيل فسألنا عن الدنيا أين مثواهاة ، وأين صباحها ، ومساها فقالوا : هي الفضاء الخالي ، ويصبر على المر من أراد الحالي ، فحزنا إلى سرة ، و نحن نمشي ، ونلتفت والبرصاد ، فوقنا يمطر والأرض تنبت بها يسر ، وصبرنا على هذا الأمر ، حتى كمل الصبر ، ودخلنا الهند ونحن ذكران ، ما قاصرين إلا براقع النسوان ، فقد عرضنا أنفسنا للهوان ، ونخضع لكل دون حتى شفنا بندر سرة بالعيون ، فإذ هي بلد لها حلوة ، وعليها طلاوة ، وفيها بروج و مروج ودنيا تروج فقلنا هاهنا جواب الشرط وبكره إنشاء الله ، نحل الربط ونجتمع بالملعونة ، و ما أطغها بالخنجرا ، وإنها تفعل لنا معونه ، وتساعدنا بمائة ألف كر ، كما قد ساعده من أيسر ، ويحصل التيسير ، ثم إنا شمرنا في التدوير ، واجتهدنا في التدبير ، فبينما نحن في ليلة قمرها شارق ، وليلها رايق ، إذ نظرنا أمامنا ظلمة ،

فتأملنا فإذا هي حرمة ، بيدها عصى وعلى رأسها كمه ، فاتحته فمها إلى الجو ، ونظرها يغمش الضوء ، وكلما رمت من فيها بزقة ، توالوا عليها من أصحابها رفقة ، وهي قاعدة بينهم من غير احتشام وأمره ، على القوم بالكلام ، فأمليت فيها النظر ، فإذ هي عبرة لمن اعتبر ، ثم نظرة إليَّ .

وقلت : هؤلاء القوم اصطفيتهم لنفسي ، ونصبت السرير و الكرسي ، وأنت ما أقمك علينا ، وأوصلكَ إلينا .

فقلت لها : سر مكنون ، ومقاساة ديون ، وسأبركِ وحدكِ وأبين لكِ ما عندي ، فإني خرجت من وكري ، وأدور لك في بري وبحري ، ثم إنها ضحكت حتى استلقت على قفاها .

فقالت : أنت كلّفت على نفسك الغربة ، وتركت الأهل والصحبة ، وأنت بين ماءها ورعها ما يُنكر فضلكم ، ولا يجي هذا المكان مثلكم ، أمكنكم مقصودة ، وأحوالكم محمودة ، وأجددكم الأولين ، غدوا بها وهم مقبلين ، فما نظروا إلى الدنيا ، ولا معاشها و لا ثيابها و فرشها ، لا يأكلون الرقاق ، ولا يلبسون النطاق ، فما لكم لا تتبعون أثارهم ، وتسكنوا ديارهم .

فقلت : مرادي المصفحة ، وسأقرى عليكِ هذه الصفحة:

اعلمي أنها قد عصفت بي ريح الأزعاج ، إلى هذه الفجاج ، ومرادي الزواج ، ولا أقدار للعلاج ، هيهات هيهات ، من لها عاش مات ، و ما جمع فات ، وأما الفتيان فلا تصلح لهم الدنيا ، فامتثلت لها في صورة المداعب .

وقلت لها : لا ترديني خايب .

فقلت لها : لا ترديني خايب فقد قرأت عليك سورة ، في بندر سرة ، ولا افتك منك ، ولو أُتلفت فحكمي حكم أصحابك عامر ، كما أصحابه ما صابهم صابه ، ثم إنها عزمت على الرحيل ، فنهضتُ بعدها وقبضت بالذيل.

وقلت : العقد قبل الليل طاعة ولا معصية ، ودنيا وإن كانت ملهية .

فقالت : هذا شي بعيد ، ومهري شديد ، ومن مراده يلعب في الميدان ، يصلّح الطاسة و العيدان ، وفي الشريعة وإذا خطب المسلم المسلمة فلا ينقص مهرها من خمسمائة درهم ، والمهر قناعة ما هو بضاعة ، وأما أنا مهري المذكور ليس هو الذهب والفضة المشهور فذلك عندي كما الهباء المنثور ، اعلم أن مهري خمس جواهر ، و أنت اسأل الغايب و الحاضر .

فقلت لها : هذا كلامك على تنكيت وتبكيت ، ونحن ما نسمع بالجواهر بالصيت ، قد قلت لك : إن مهري ثقيل ، ومن عشقني لا يقول كثير و لا قليل ، فإن أحضرة الخمس ، قبل طلوع الشمس ، أركبتك متني ، وأظهرت لك حسني ، وكشفت لك فخذي ، وأطلعتك على ما عندي ، وإن لم تحضر المضمون ، فما أنت لي لظنين ولا مضنون .

فقلت لها : ما هذه الجواهر ، فإني عنها في غشاء ، وأنا ما أقدر على العشاء .

فقالت : إنها خمس درر ، أودعهن الله في كل مسلم ومسلمة من أنثى ، و ذكركما في حديث خير البشر :

الدرة الأولى : العقل ، فهو زمام الوصل .

الثانية : الدين فهو العقد الثمين .

الدرة الثالثة : الحياء فهو صلاح الأشياء .

الدرة الرابعة : المروة فإن بها مقام الفتوة وقد قيل في المروة لله در الشاعر قال :

مررت بالمروة وهي تبكي   فقلت لها وما يبكي الفتاة

فقالت : لما لا أبكي وأهلي   من جميعاً دون خلق الله ماتوا

الدرة الخامسة : النسب فهو السلم والسلب .

فقلت لها : المنايا ولا الدنايا ، ولا إفراط في هذه العطايا ، ولا يصلح العيب ، بعد ظهور الشيب ، وأنتِ قدركِ عجوز وهذا شي ما يجوز ولا أطيع هوى النفس ، لأجل الدنيا والفلس ، ثم إني بت طول ليلتي لابس ثياب محنتي ، وأفكر في قصتي وخطتي ، لهذه الفتاة التي هي أعظم محنة ، فلما أصبح الصباح بالنهار ، ودقت الأفكار ، وترجح عندي أني أعود إليها أي العجوز الجردَا ، وأكون لها عبد ، أو اقضي حاجتي منها ، وابتداءة أجتنيها من طريق الخداع .

وقلت في نفسي : لعلها ترحم الجياع فلما وقفتُ عندها .

قالت : المتاع المتاع ، ومرادها الجواهر الذي لا توهب ولا تباع ، فعرفت أنها قليلة خير ، وقاطعة السير ، ولا ترحم مسلم ، ووجهها مظلم مشوه .

فقلت لها : ما الحيلة والتدبير ، والتكسير والتحبير .

فقالت : الحيلة ذرها والخمس حطها طوعاً أو كرهاً .

فقلت لها : نقتسم التركـة أخمـاس ونكـون بـين الطمـع واليـاس ، ونعطيش الحياء ، الذي هو جمال الأحياء ، وتبقى لنا الأربع الخصال ، التـي عليها المنال ، والتي عليها المباني و الساس ، ولابد لي ما أعطيش الحيـاء فـلا باس ، وبناقص الحياء بين الناس ، خصوصاً عند هذه الأجناس ، فأعطيتهـا الحياء ووطيت الرأس .

وقلت في نفسي : حجّام و لا كناس .

فقالت : اكتب الحياء في قرطاس ، وبت على الطوى وضـويت فـيمن ضوى .

وقلت : الصبح يستوي الجلجل وسليط ، ونتعقب من التخليط .

ولما طلع الفجر وسمعت الأذان ، خرجت من المكـان ، وأنـا قـابض على الوعد .

فقلت : اليوم العقد ، وهو يوم الخميس ، و بايضوي الجمعة ونخـزي إبليس ، والشيطان التعيس ، فجيـت إلى الخـان ، وحـسبتها في المكـان ، فـما وجده إلا الدخان .

فقلت : صبر جميل والله المـستعان ، فـاقطرة دمعتـي ، وعزمـت عـلى رجعتي ، وندمت على غربتي ، من بلدتي ، ولكني ذكرت العربون المعجل ، وهو الحياء الذي من انتزع منه تعطل ، ومن لا له حياء مـا لـه إيـمان ، وقـد سيبت العنان ، بغرور الشيطان على ما كان ، ودورت عـلى مـسعد ، يـدلني على الطريق المبعد ، وذلك بعد ما سألت عليها في جميع البلاد .

فقالوا : إنها قصدت حيدر أبـاد ، ثـم إني اسـتكريت تتـوه كلمـة هندية اسم للراهون ، لم أزل أتنقل وأفر كما العولة ، لحتـى وصـلت إلى بلـد ناصر الدولة ، بلد الريح والصياح والضولة ، فمشيت بين الدهليز والبانيان ، وعبّاد الأوثان ، والإسلام هناك ذميم ، ولا تلقا صديق ولا حميم ، وكلمن يغار على الدين ، ويخاف رب العالمين ، ويتبع سيد المرسـلين ، مـن الأولـين والآخرين ، فلا يجلس في ذلـك المكـان اللعـين ، والحرمـة لابـسة شـولاي وصارى ، وهي شل الحمار ولبس الرجال ، عكركه وكبرة ويجمعـون ، بـين الزنا والربا وشرب الخمر فصادفة الهرة على غرة وسعفها أبو مرة .

فقلت لها : يا ناقصة القول تركتيني في الجـول لا لي قـوة ولا حـول و شردتي عني شردة الجراد والخيل الجياد .

فقالت : إن مرادك سـعف الجماعـة حـط المهـر في هـذه الـساعة و إلا ارجع إلى بلادك أرض المجاعة والنوم في القاعة فصرخت بالسراديل والقوم القوم المراذيل فاقبلوا عليّ جيلاً بعد جيل .

فقالوا : مالك ؟ .

فقلت : أنقذوني من هذه الجايرة .

فقالت : طلبت مني خير الدنيا والآخرة وأنـا في بلـدكم محـصورة ، والمظلوم بينكم منصور فتكلم لسان الدولة .

وقال مالك : وكثر الضولة .

وقال : أما نحن فقد ملكناها النواصي و تزوجناها على ركوب المعاصي وغيرنا المعاملات وكتبناها سجلات فإن أردت أن تملي الأكياس مثل الناس امش لها على العين و الرأس .

فقلت : لا باس أحسن نقع مثل الناس ونعطيها مطلوبها في القياس .

وقالوا لي : أنت شقيت العصا وكنت ممن عصا فلا تخطب الأبكار و تقلع من هذه الدار .

فقلت : يا أهل الأقدار والسراديل الكبار نظراً بلا اختيار ترضون لي بالعار والنار ولا تنصتون لقول المحضار : فقد ركب الأخطار وشاهد الأكدار ومراده بالأيسار ويعود إلى أهله وأبناه الصغار بالكسوة والضمار فتكلموا بلسان واحد وقام من هو قاعد وضجوا بصوت شنيع .

وقالوا : يا أيها الرجل الوضيع و الغريب الضليع ما أنت كفؤ لسيدتنا الكبيرة الحرة النويرة ملكة هذه الجزيرة إما أن تسكت عن هذا النبش وإلا أعطيناك البنش وارتفعت الأصوات وانفتحت اللهوات .

وقالوا : أما تستحي على نفسك تبخل عليها بخمسك المطلوبة ولو طلبت منك خمس أخرى ابذل ذلك للمحبوبة ثم طمرت الجبل على الغارب.

وقالت : مالي ولهذا العازب الخارب فطار عقلي لما رأيت هذه العجايب ومما أنا له طالب فلما رأيتها سارحة ذكرة الليلة الرايحة .

وقلت : لها بانشاور الخاطر وبانعطيش المرؤة وهي الثانية من الجواهر.

فقالت : إن كنت راضي يكتب بيننا الخط القاضي فكتب بيننا الخط القاضي وكتب ابمط ناجز هذا جايز .

وقال : هذا قليل في حق سيدة العجايز .

ثم إنها قالت : النوم نستريح من اللغوب وغداً نظفر بالطلوب ثم إني طلبت من الجماعة إجازة وظننت أنها تقضى العازة وتبري الحزازة فقاموا على الهزازة والمزازة .

وقالوا : إن الجواد الكريم لا يوجد في هذا الإقليم .

وقال كبيرهم : إن أنت قصدت بابي و لذة بجنابي أعطيتك خمس ربابي.

فقلت : خير أن أبقى فقير ولا هذا الشي الحقير وصبرة على الضراء .

وقلت : أليس عند العجوز البيضاء الصفراء إن شاء الله غداً يركزون الخيام المنصوبة وتحصل الرطوبة ونتولى الدنانير المسكوبة ونفعل كلمة على هذه الغلمه ثم إن العجوز أخذت نفسها وتزينت وظنت أني قادر عليها ولا حسبت أنها تلونت فإذا هي قد خرقت الصفوف و تركت جوفي مجوف ومرجوف فسالت عنها المارد المتمرد .

فقلت له : أتراها تقرب أم تبعد ؟ .

فقال لي : إن كنت تفهم الكلام وأنت الناس الحشام ولا على نظرك غشاوة فتراها نفذت إلى جاوة بلاد السكر والحلاوة و الذي في قلوب أهلها قساوة .

فقلت : جزوين من الغرام ولا على جاوة سلام .

وقد قال الحبيب عبدالله بن حسين بن طاهر كلام بين ظاهر السناوة ولا جاوة فمتى أستريح من العار والخزي ، ولو أركب على حماري عري ، فتبعتها فلنلان .

فقالوا لي : في سنغفورا هي قبلك أو فلبتميان ، فتجهرة إليها في أسرع وقت .

فقالوا لي : أنها سافرة إلى بتاوي وباكلنتان ، وإن لم تجدها هناك سر إلى شربون وسماران ، فوجدت أهل جاوه مضروب على أذنهم لا يسمعون ، فتحملت كثير من الهموم وفوضت أمري للحي القيوم ، ونزلت عند المتوسمين ، فما وجدت غير بيت من المسلمين ، ومن تظنه زعيم ، تجده لئيم ، وفي النار تلقى رجل كريم ، لا يميزون بين الصحبة ، ولا يوفو من حقوق القربة ، بيوتهم بيوت الغنم ، و قوتهم قوت الجذم ، ولباس نساءهم لباس الشتم ، مكشفات الروس ، مقطعات الضروس ، إن رغبت في محادثتهم ما حدثوك ، وإن باحثتهم ما باحثوك ، وبلدهم فيها رانجيل وموز خارف ، ولا فيها رطب ولا مناصف ، وأيديهم شديدة ، وعيشتهم نكدة ، ولا يحبون العصيدة ، ولا لهم سيرة حميدة ، ولا يزلون في خبب ، ويسعون في الطلب ، وتاليتها عطب ، وإن كان فيها ذهب ، لمن لا يحسب المنقلب ، وفيها ضياع الدين و النسب ، وأهلها دوب وقتهم في تعب و نصب ، أولها عرب ، وأوسطها مولدة وأخرها ملايو فحاكيتهم بالزمر المرموز ، وسألتهم عن العجوز .

فقالوا : إنها في سربايـة ، وهـي عنـدهم غايـة ونهايـة ، فلفلفـت شعاري ودثاري ، وسرحت في أمان الباري ، وأرجوه في إعساري وأيساري ، وأحوالي شتيمة ، و نفسي مستـضيمة ، وأضـممت العزيمـة ، عـلى قـصد بلدي القديمة ، فوصلت سربايه ، وأنا أغبر أدبر ، وأنا أغـبر أدبـر ، وحـالي مصفر ، ودخلت المضياق ، وأسال عـن العبـد الآبـق ، لا رغبـة في لقاهـا ، ولكن لجواهري التي في وعاها ، وأهل البلد يكرهـون الـضيف ، وإذا جـاء طارش قاموا عليه بالسيف .

فقلت : يا ناس إني حرمت الأكل في بلادكم ، وحـرام عـليّ زادكـم ، وما قصدي إلا قدر وقفة ، أسالكم عن عجوز فرت مني مثل الخطفة .

فقالوا : لعلك تسأل عن مغنية الفاقة ، ومن حبنـا لهـا فـوق الطاقـة ، وعليها نتزاحم الأخيار و الأشرار ، وهي الجليسة والأنيسة في الليل والنهار ، فما مرادك تسأل عن مسراجها و رواحها .

فقلت لهم : لأجل تجديد نكاحها .

فقالوا لي : ما إلى ذلك من سبيل إلا إن قدرة على التحصيل .

قلت : وما هذه الأغراض ؟ .

قالوا : إنك تقرظ العلم بالمقراض ، وتكثـر في الأرض الأرتكـاض ، وتفارق المدارس وتحضر القتاس ، و تفسح في القنوع ، وتكون هلوع جزوع ، طموع جموع سنوع ، وتعطيها حقها الثلاث الجواهر ، وتمسي طـول الليـل ساهر ، مرادها تشكها في عقدها ، وتظفر في بلدنا بعقدها .

فقلت : اجمعوا بيني وبينها للمناظرة ، وأنتم تحضرون للمـشاورة ، فقاموا إليها يتهلهلون ولها يدعون و يبتهلون ، حتى جمعونا للكلام ، عـلى غير طعام .

فقلت لها بلسان إفصاحي : أنتِ أخذتِ صلاحي وفلاحي ، وحلـتِ بيني وبـين مراحـي ونجـاحي ، واليـوم يـوم الخـلاص ، ويـوم الاقتنـاص والأقتصاص ، ولا لش مني مناص ، فقد قليتنـي في المقـلا ، و قتلتينـي مـع القتلا ، وأخذتٍ جواهري التي لا تباع ولو بثمن أغلا ، واليـوم لا أنـا مـن راحتي ، و لا من ساحتي ، والآن عادنا باعطيش وحدة ، وتقـوم الوعـدة ، فإن رضيتِ بها فعلى الرأس والعين ، وإن أبيتِ شققنا الجبـين ، وتقـع بيننـا وقعة جنين .

فقالت : بشرط إني القط وأتخـير ، وأشـل الـذي أفخـر ، فـاء خـذني الأسف ، وأيقنت بالتلف ، ثم إنها تغيظت ، وصالت وتكلمت .

وقالت : أيها الصنكيع الفقري ، إن مرادك الركوب على ظهري ، سلم ما بقي من مهري ، و إلا فارجع إلى بلادك ، واجلس بين أهلـك ، وأولادك فبلدك ، إذا كانت رخية ، وعيشتها هنية ، ومؤنتها يسيرة ، وأحوالهـا مقـترة فاقنع فيها بخبز الخميرة .

فقلت لها : هذا أخر محط فخذي مني النسب في بـلاد الأرذلـين وهـو محفوظ في بلاد آبائنا الأولين لكن بـشرط أن لا يكـون منـكِ هـرب الحيـث

مرادي أرجع إلى العرب وحسبت أني رجل عاقل وأعرف الفواضل والفضائل فكيف هان عليّ بيع النسب وتبديل السخل بالرطب .

فقالت : إن بغنت الحظوة عندي وباتملك عقدي ونقدي خلِ كُثر القيقير القيقير كلمة جاوية بمعنى خلِ كُثر الكلام وارمِ بنفسك في البير وانهق كما تنهق الحمير ثم إنها تحركت ونهضت و نهضتُ معها البلاد وصفقت معها البلاد وامتلأت المضايق ، والأسواق وغنت بلابلهم إليها بالأشواق ودخل و تغلط عليهم الكيل واختلف الأحزاب من بينهم ولا عرفوا زينهم من شينهم فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتسألون وفيما بينهم يتواكلون فإنا لله وإنا إليه راجعون والكلام والحكم في جاوه للكفار والعز والرفعة للتجار والنساء في جاوه لهن الخيار {والله يخلق ما يشاء ويختار} .

وأما العجوز التي عليها اللعنة تجوز بقيت تطالبني في العقل والدين الذي هو غاية رضا رب العالمين وفكرة في أمري سراً وجهراً فوجدت لا معي في الدنيا ولا عيش الأخرى وعرفت أن الفاجرة مرادها تطفي المصباح وتتركني في ليل بلا صباح فشق عليّ تجهيز أمالي و ضياع أعمالي و كشف أحوالي لصلاح بالي وبلبالي .

وقلت : رجوعي من سفري بلا منفعة و أنا ما خرجت إلا في طلب السعة و أتعبتني هذه الرذيلة ولا قدرة عليها بحيله ولا حصلت كثيرة ولا قليلة ولو إني قنعت ما احتجت إلى ركوب البحر العجاج والدخول في

العشوش مع الدجاج ولكن من الطمع افتضح وفارق الـسلا والفـرح وشل الجراب والقدح وقد طال التنفيذ والترديد وخرج بنا الكلام إلى مـا لا نريد ثم إن العجوز غبشت قبل طلـوع الفجـر لأصـطناع الغـدر والمكـر و عزمت على السفر البحر فزجرتني أعظم الزجر .

وقالت : يا مبضع القدر تحسب أنك متزوج عليّ قبل ما تـسلم المهـر والآن إن مرادك إصلاح الأمر و انشراح الصدر فقص أثري فإني سـابرة إلى أم الدنيا مصر .

فقلت : أيها الناس هل سمعتم الخسيسة القاهرة النحيسة هل عنـدكم من حيلة .

فقالوا لي : حيلتنا في هذا الشيء قليلة .

فقلت : لولا جواهري في كيسها لتركتها ها و أباليسها .

فقلت : ما الشور و الراي .

ثم إنهم قالوا : الشور إنك تسير تتبعها إلى مصر لعلك تتفق بها حول باب النصر فإنها قد تجتمع بأصحابها هناك بعد العـصر ونوصـيك في جميـع أمورك بالصبر .

فقلت : أدعوا بالنصر فعسى أظفر بها وأعصرها عصر واقـرو عليهـا سورة النصر وسورة الحشر واحجر عليها حجر ويكون بينـي وبينهـا كـلام

فصل وعادنا أرهن عندها العقل فـإن غالـب النـاس مِقَايِـسين أني قـد أعطيتها الدين .

فقالوا : أنت رابح وفايز بكـل المـصالح إذاً بـايقع لـك التـزويج بهـا بذات اللون البهيج فأمورك سهلة ولا عاد فيها وهلة و إذا ما عاد في الزواج دخلة ولا خرجة فسلم لها خمساً معجلة بلا مهلة .

فقلت : تشيروا عليَّ بهذا أيها الفتياء .

قالوا : أما المال والبنون زينة الحياة الدنيا وإن كنت في غاية الإذلال فما أعظم في زماننا هذا المال لأنه يزين به الرجال ويعز الأنذال ويجبب الأبطـال وهو المنا والسول على كل حال وصـاحب المـال في غايـة الكـمال وإن كـان قاصر البـاع ولا منـه معونـة ولا انتفـاع ولكـن مـن لهـم الآثـار المحمـودة والمشاهد المعـدودة ومقلـين عـلى الـبر والإحـسان وزاهـدين في الفـان ولا يغرهم الافتتان ولا يأخذون لومة لائم في رضاء الرحمن ولا يضحك عليهم سلطان وهم العلماء الأعلام أهل صرير الأقلام القائمين في طاعة المولى على الأقـدام يحللـون الحـرام ويجتنبـون المعـاصي و الآثـام ويطعمـون الطعـام ويصلون بالليل والناس نيام .

فقلت : لابد لي مـن المـسير وراء العجوزالفتانـة الـساحرة الـشيطانة فدخلتُ مصر و سألت عن الرقطاء .

وقلت : أين قدمها أخطاء ؟.

فقالوا إن لها باب النصر مثوى ولها على شاطي النيل مأوى

فتجهزة من ذلك الحين وقصدت خارج السور فإذا هي قاعدة بين البروج و عندها الأتراك و العلوج فتخطيت تلك الجموع و دخلت ديوانها المرفوع .

فقلت لها : يا شومة يا تلفة نسيتيني المعروف والمعرفة و عرّفتيني بالوجوه المختلفة و نقضتي العرا و صيّرتيني إلى الورى و أدخلتيني في بحر الغرام و الهيام ولا بلغت منك المرام وندمت على ما راح من الجواهر الملاح الذي من ضيعهن ما استراح و لا معه فلاح ولا لي إلا عقلي وديني فهو لي كمصباح لكل خير يهديني وهذه البلد المعتمد فيها الحاكم الذي يكشف المظالم يصلح بيني و بينش أو يرد منك قرة عيني فحضرنا عند الحاكم في القلعة الحصينة ذات المنع الزبينة فوجدناهم على الكراسي والأسرة والمركب في شاطي النيل جارية مستمرة و إذا نظرة يميناً و شمالاً نظرة البضائع و الأموال والخيول المسومة والثغور المتسمة وفيها ما تشتهه الأنفس وتلذ الأعين وكل يوم أربعمائة مركب تنزل ومثلها تدخل ومثلها تشحن وغالب شحنتها من القمح والحنطة أخاس إلى بلدان الأفرنج وسائر بلدان الناس ولو جمعتم ما جمعتم اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم فتداعينا في المقام عند الناس الحشام وقعد من قعد و قام من قام وكل مستمع للكلام و حضر الحاكم و أعيان البلاد .

وقالوا : تظفر بالمراد والزاد و المزناد وهذه أصناف الخيور وهـذه التحف والسرور فلا تقوم ولا تثور ومن تحتك شط النيل فاثبـت في المكـان ولا تميل علينا لك نحضر الصحون والصحاف ونطـوي معـك في المطـاف وندخل البساتين الظراف و نجي من حديقة إلى حديقة لأجل نأخذ بخاطر الأم الشفيقة وهي لك من كل حزنٍ مسلاة وأنت لا تركز المخـلاة ولا تقـل لاه لاه و أما العقد فقد عزم على التوديع ومن ادعاه في هذا الزمان يضيع .

فقلت : إني بن هاشـم أترمـوني بـالتلف و تأخـذون عقـلي الـذي بـه الشرف وترموني بالهوان وأنا فلان بن فلان وفي هذه البلد الحكـم والحكمـة وفيها علماء الأمة .

فقالوا : أما العقل فما يجد فيه مشير ولا شويرا دخلفـي هـذا المـذهب واسحب كما من سحب وارهن عقلك عندها قبل أن تـروح وتـذهب و إن سيبتها لا شك أنك تتعب والحال أني نشبت بين العقال والجهـال ولا خطـر لي هذا ولا مر على بال .

وقلت : ما ظننـتُ أن هـذا عـرفكم ولا تحقـق لي أن هـذا وضـعكم ومرادكم أن أعطيها عقلي و أبقى خبيل وأكون بين أبنا جنسي رذيل فحسبنا الله ونعم الوكيل وما متاع الحيـاة الـدنيا في الآخـرة إلا قليـل ومـا هـذه إلا مصيبة ما بعدها من خيب الله الكاهنـة و مـا عنـدها فلـما سـمعت كلامـي

وأفتهم لهـا مقـصودي ومرامـي اهتـزت وتزعـزت و إلى إقلـيم الـروم عزمت ثم إني وثبت كالأسد البطل .

وقلت : بحق من خلق الإنسان من عجـل مـا تـسرحين بحقـي وأنـا أشوف و لا أرضا تلعبين بي بين الصفوف أما علمتِ أني المحضار الموصوف أما أنتِ فعند الأخيار مبغوضة ولا تسوي عند الله جناح بعوضة .

ثم إنها قالت : حجتك منقوضة وعـصاك مـشظوظة ثـم إنهـا قامـت وقاموا معها العرب و دقت معها الخانات والنوب والنـاس خلفهـا هرولـة وخبب فتلقيتها قبل أن تخرج و إلا من الباب تدرج أ و تلج في الأرض أو في الجو تعرج فمسكت بذيلها .

وقلت : مهلاً لا مرحباً بك ولا أهلاً بانحط العقل عند رجل عدل .

فقالت : قول فصل ما هو بالهزل قدرنا في البلد التحيف النضيف على رجل أمين و عفيف فـما وجـدنا إلا الحـاكم الثقيـف ورهنـت العقـل عـلى التراضي .

وقلت لهم : وكيلي القاضي بشرط يكون قبل غروب الشمس وفي هذه الليلة العرس ويكون جلوسي في هـذا البـستان ولي مـن والي مـصر الأمـان والملابس الحسان من كل جنس إثنان .

فقلت : يكون الليلة الزفاف و الـزفين والعقـل في الطـين في الـتراب دفين ولا بقي في ذلك شك ولا وهم و بقي من الجواهر سهم و هـو الـدين

المصون و الجوهر المكنون وكاد و الحاضرون أن يغبطوني على ما نلت و يهنوني بما ظفرت و أنا منتظر العَشاء والقهوة فلبثت قليلاً فإذا بالملعونة قد حلت الحبوة وفرة كأنها حثوة .

فقالت : أيها الرجل المحروم والجاهل المغروم اتبعني إلى الروم بها سلطان ملكه منظوم ولا هو جاهل ولا ظلوم فطار عقلي و حار لبي وقلبي وبت طول ليلتي أهمر وأصبي .

فقالت : لي نفسي أيها المظلوم لا تكلف الأحزان والهموم وفوضت أمري للحي القيوم .

فقلت للحاضرين : اشيروا عليَّ بالصواب ولكم الأجر والثواب .

فقالوا الشور أنك تتبع الحرة الحسناءلأجل يحصل لك السول والمنا فطلعتُ في قاري الدخان لأجل عجوز الشيطان فلما وصلت اصطنبول درجت في البلد عرضاً وطول فإذا أنا بضبجبة عظيمة و الخلائق فوقها مستقيمة فسألت بعض الناس المجتمعين .

فقالوا : ها نحن على حال الدنيا واقفين و لما تقوله سامعين ولهيبتها خاضعين ولأمرها طائعين ثم إني اخترقت الصفوف وأمشي بينهم محروف إلى أن استقر بي الوقوف فغامزتها برمي الدفوف .

فقالت : المستعجل الملهوف أما تراني بين هذه الجموع وأحبابي وأصحابي تدرح حولي وتلوع فما أظنك إلا خبيل وأدبك قليل .

فقلت : لها يا قليلت الخير و كثير الضير ما يكفيكِ ما قـد فعلـتِ وكم أوعدتيني وخلفتِ فما هذا فعل عوايـد النـاس الزيـان بـل هـذا فعـل الخساس الشيان والآن ما لش مني بداة يا حاش الناس يا فتـاة فـلا خـير في مقاربتش ونكاحش وقد قنع منش خاطري فردي لي جواهري .

فقالت : لا تعجل وتنطبع فاسمع ما أقوله واتبع ولا تتبع هوى هوى نفسك فتضيع بومك وامسك و تمسى نادم على فعلك القبـيح فاصـبر عـلى التعب أن شئت تستريح .

قلت : أما أنا قد أعطيتش جواهري الأربع .

فقالت : فكيف عادك تطمع في الخامسة .

وقد قالوا العرب : من باع الحصان معاد بالا بالسرح والعنان .

فقلــت لهــا : مــرادش هلاكــي يــا العــاثرة و ســتحرميني ثــواب الدنياوالآخرة الآن بانتحاكم أنا وأنتي عند أعيان الـبلاد إمـا فـراق بينـي و بينش وإلا سداد فنصبنا الحُكام وقمنا على الأقدام فأنا ادعيت بما قدمت وما أخرت فجوبت ولكنها افترت وأنكرت .

فقالوا : أهل الحكم كيف نحكم عليها و نواصـينا بـين يـديها و إنـك تزعم أنك سيد ذو عفاف أما جدك علي فقد طلقها ثلاث بلا خلاف فكيف لا تتبع جدك فقم ونهض يدك .

فقلت : كلامكم صادق وأنا بما قلتوه واثق ولكن أنـتم اخرجـوا جواهري في كيسها .

وقد قالت العرب : خيار العطايا بروسها .

فقالوا : نحن نطلب ذلك منها إن هي راضية .

فقالوا : لها أيتها الـدرة الغاليـة أمـا كـوني للمحـضار وافيـة مـصافية والبسيه من جودش حلة ضافية لعله يفوز بالسلامة ويرجع إلى أهله و وطنه بالعافية أو ردي جواهره .

فقالت : دعوه يعود إلى بلده و يده خالية لأنه رجل من البادية و تربى بين الماشية .

فقلت لها : أنا بن هاشم المجروب دعوني أذبحها بخنجري المشطوب فلما سمعت كلامي الخاينة المـشهورة و الحمـد لله عـلى الـسلامة ولا عليهـا ندامة هذا ما جرى للمحضار من ركـوب البحـار وسـير الليـل والنهـار في البرور و القفار .

انتهت المقامة المباركة نفع الله بصاحبها المسلمين في الـدارين آمـين يـا رب العالمين و صلى الله على سيدنا محمد و اله وصحبه وسلم

تمت

بتاريخ ١٦ شوال ١٣٩٧ هـ

بقلم العبد الفقير إلى الله أحمد بن محمد باسودان

غفر الله له ولوالديه والمسلمين أجمعين

آمين